
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
فرناندو بيسوا
حوارات حول الطغيان
ونصوص أخرى
حوارات
تقديم وترجمة: إسكندر حبش




**خطوط وظلال**

للنشــر والتــوزيــع



الأردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (٢٠)

تلفون: +962 6 4651846 - +962 79 5746218

email: dar5otot@gmail.com

ص.ب: 11190، عمّـان 925220 الأردن



فرناندو بيسوا - حوارات حول الطغيان

نصوص - ترجمة وتقديم: إسكندر حبش - الطبعة الأولى، ٢٠٢٢





تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي:





**المملكة الأردنية الهاشمية**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٢٦٨/ ٤/ ٢٠٢١)

٨٦٩,١

بيسوا، فرناندو

حوارات حول الطغيان / فرناندو بيسوا، ترجمة اسكندر حبش

ـ عمان: خطوط وظلال للنشر والتوزيع ٢٠٢٢

(٧٦) صفحة

ر.إ.: (٢٢٦٨/ ٤/ ٢٠٢١)

الواصفات: /الشعر البرتغالي//الادب المترجم//الادب البرتغالي//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الرقم المعياري الدولي ISBN: 9 [illegible]

# ديمقراطية الطغيان.

ربما لن تتوقف أبدا، دهشة القارئ بـ «أقنعة» الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا، التي لا تُحصى، وبعمله الأدبي ذي الأوجه المختلفة. كذلك لن يتوقف عن التعجب وهو يَكتشف أيضاً وأيضاً، وجوهاً جديدة، كان يُمرّر الشاعر من تحتها رسائله الملغزّة، في غالب الأحيان. هذه الوجوه الأخرى التي كان يُحمّلها أحيانا اسمه الخاص، كانت في الواقع «أشخاصا» يحاور من خلالها «الجماهير» (جماهير عصره) المتعددة والمتنوعة التي كان يتوجه إليها، لمّا يزل على قيد الحياة. كذلك كان يفكر، في الوقت عينه، بالجماهير المقبلة، القادمة، أي «نحن» الذين نقرأ له اليوم، ونعيد اكتشافه في عصر مليء بالأزمات. تلك الأزمات التي أحس بها، واستشرفها، وشعر بتمزقاتها المتعددة والمتنوعة منذ بدايات القرن العشرين.

من هذه الكتابات، المنشورة (أو غير المنشورة)، حين كان لا يزال بعد على قيد الحياة وحيث أن السياق التاريخي الراهن يعطيها بعض الحدثية الجديدة، كانت هناك بعض النصوص التي من الممكن أن نطلق عليها تسمية نصوص «سياسية» أو «اجتماعية». وذلك بحسب الموضوع الذي يقترب منه. من هذه النصوص التي أترجم بعضها (لا كلها بالتأكيد) في هذا الكتاب، وهي نصوص كانت

تخضع بدورها لمنطق الخطاب ذاته الذي كانت تخضع له نصوص بيسوا الشعرية والأدبية أي «منطق التناقضات».

إنه تناقض بلا حصيلة، حيث أن العبارات المتضادة تتعايش وتتزامن - وعلى خلاف المنطق الهيغيلي - من دون أن تصيب الحصيلة ذاتها، كأنه بذلك يستعيد قوله: «كلّ رأي هو فرضيّة وبسبب النقص في الحقيقة، فإن العالم مليء بالآراء. لكن هناك لكلّ رأي، رأي مضاد، وهو إمّا رأي نقدي أو مكمّل للأول. في واقع الفكر الإنساني العائم وغير المتيقن بشكل أساسي، يبدو الرأي الأولي كما الرأي المضاد له رأيين غير ثابتين، لذلك ما من حصيلة نهائية، في أمور اليقين، بل هناك فرضية وفرضية مضادة. وحدها الآلهة ربما استطاعت أن تصل إلى نتيجة ما...»

وبما أن هذه النصوص، تتعلق بشكل مباشر بالحياة الاجتماعية، لذلك رغب الشاعر في نشرها، إذ كان يومها مرتبطا بحركات طليعية، كحركتي «أورفو» و«البرتغال المستقبلية»، فهو بقي مخلصا إلى هذا المنطق، الذي سمح له بأن يتخذ مواقف متساوية، بالضبط لأنها مواقف مكملة لبعضها البعض؛ يقول: «إن رأيين متضاربين بأي شكل من الأشكال هما في النتيجة رأيان متشابهان».

في الفترة التي كان فيها بيسوا مرتبطا بحركة «أورفو» كان يكتب مقالات لصحيفة «أوجورنال» (الصحيفة) وكان يوقع زاوية صحافية بعنوان «حوليات الحياة التي تمّر» وقد اتسمت بأسلوبها المستفز، ودافع فيها عن «التناقض بمثابة علاج للتحرر» ذاهبا إلى حدّ الادعاء بأن «مخلوقا» ذا أعصاب حديثة وذا ذكاء بلا حجاب وذا حساسية مستيقظة، يدفعه «مخه إلى تبديل رأيه ويقينه مرّات عدة في اليوم الواحد». وهذا الأمر لا يتيح له «أي معتقدات دينية أو أي أراء سياسية أو تفضيلات أدبية، وإنما أحاسيس دينية وانطباعات سياسية ونبضات أدبية».

من هنا نجد أن لهذه الحالة عند بيسوا تملك معنى أعمق بكثير وإن كانت في الواقع حالة لا إمتثالية لأنها تدافع عن تعددية «متموجة ومتعددة» (بحسب تعبير الشاعر الإيطالي يوجينيو مونتالي)، لأنها تظهر كحالة تمتلك نقدا لطغيان «الرأي العام» بما هو «رأي مشترك» أو «رأي عام»؛ فبحسب بيسوا الذي يضع « الدوكسا» اليونانية مقابل «البارادوكسا» فانه يجد إن الصدفة المتناقضة تقوم من منطق خاص بالخطاب الشعري، الذي يحدّده «بالتعايش المتنافر للفرضية والفرضية المضادة».

انطلاقا من هذا المنظور، علينا قراءة نصوص بيسوا الذي كان

بدأ بنشرها العام ١٩١٣ في صحيفة «أكسيون» الناطقة بلسان «نواة العمل الوطني» والذي حاول فيه أن يبرهن على ما أسماه «خرافة» هذا المفهوم، من خلال مجموعة من البراهين المتراصّة والمسيّرة من خلال هذا المنطق، كما من خلال «إحراجات متعاقبة» يفضي إليها تحليله ومن خلال تقديمه الرأي العام، بصفته منحدرا من الغريزة لأنه وبحسب «علم النفس الحديث»( في تلك الفترة) فإن اللاوعي يحمله إلى الوعي (تلميح دقيق إلى التحليل الفرويدي الذي كان بيسوا مسرورا بمعرفته)، إذ يعتبر الشاعر أنه «كما كلّ غريزة» فهي «خصم بشكل جذري» ... وانطلاقا من هنا فانه يفحص بدقة كلّ المفاهيم المتنازع عليها من مثل «الشعب» و«الأكثرية» و«الليبيرالية» و«التقليد» و«الثورة» و«الثورة المضادة» و«دكتاتورية البروليتاريا» و«القومية» و«الدولانية» الخ ... وذلك من خلال دفعه تحليلاته إلى الطرف الأقصى، كي يصل إلى خلاصة عامة من دون أن يحتكم إلى أي من العبارات المتضادة كالليبيرالية والثورية، لأنهما، برأيه، ليستا سوى خيانات في مواجهة الوطنية. يقدم بيسوا في نصوصه، هذه الوطنية» كأنها الغريزة الاجتماعية الأساسية، أي أنها أساس الرأي العام وبخاصة من خلال تمظهرها بشكلها الأوضح على أنها «غريزة اللغة الأم». ألم يكتب تحت اسم برناردو شواريش في «كتاب اللادعة»: «إن وطني هو اللغة

البرتغالية.»

من هذه الزاوية، نرى منطق خطاب نصوصه هذه، وكيف هي مرتبطة بالوطنية التي يستدعيها الشاعر مرات عدة. لا تتشابك الوطنية هنا مع القومية، التي وصفها بيسوا يومها بأنها «أمر ضد البرتغال» حتى وإن كان هو نفسه قد ارتبط في فترات ما بحركات قريبة من « القومية الروحانية» ذات الدلالات «السيبستيانية» (نسبة إلى سان - سيبستيان). في أي حال، نجد أن بيسوا قد أشار إلى ذلك في محاولته القصيرة لكتابة شبه سيرة ذاتية، إذ حدّدها بأنها وطنية ذات توجه عالمي معطيا إيّاها الشعار التالي: «كل شيء من أجل الإنسانية، لا شيء ضد الأمة». علينا ألا نبحث في نصوص بيسوا هذه، عن أي موقف سياسي بالمعنى الضيق للكلمة. حتى وإن كان بيسوا يصف نفسه بأنه «ملكي». إذ كان يرى أنه سيقترع من أجل الجمهورية. دائما نجد هذا التناقض والتضاد. تناقض، نعود لنجده عندما كان يصف نفسه مجددا بأنه «محافظ على النسق الإنكليزي» ذي «أسلوب ليبيرالي». من هنا نجد أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أن الأمر يتعلق بتضاد سياسي، لأنه في تلك الحقبة بإنكلترا كان المحافظون والليبيراليون على تضاد سياسي؟

ما يقوم به بيسوا في العديد من نصوصه، التي يمكن وصفها بالسياسية أو الاجتماعية - حين يطرح المبادئ التي تقبلها الرأي العام من الديمقراطيات الحديثة، عقب الثورة الفرنسية - هو إعطاء معنى آخر (أخفته الدوكسا) للثلاثية الشهيرة: أي أن شعار العام ١٧٨٩ «حريّة، مساواة، أخوّة» كان بالنسبة إليه قد تحول إلى «ثالوث أقدس بخدمة أولئك الذين لا دين لهم». فمن جهته، كان بيسوا يرغب في أن يعطيه منحى روحانيا أكثر من أي منحى سياسي. وهنا نجد إحدى الفرضيات الأكثر ثباتا من وجهة النظر الدينية، إذ يقول في «شبه سيرته الذاتية» عن «المسيحية الغنوصية» إنها: «مخلصة لأسباب قد تبدو مضمرة إلى التقليد السرّي للمسيحية، التي تدخلها في علاقات حميمة مع التقليد السري في «إسرائيل» (أي مع القبلانية، لم تكن دولة الاستيطان موجودة بعد) ومع الجوهر الخفي للماسونية.

لا غرابة في أن يأتي بيسوا ويدافع عن هذه الماسونية بعد مجيء سالازار إلى الحكم في نص جريء نشره العام ١٩٣٥، حيث دافع فيه عن حريّة المجتمعات السريّة. مقاله هذا الذي صدر في صحيفة «لشبونة» عارض فيه مشروع نائب من الدولة الجديدة يدّعي منع الجمعيات السريّة وبسخرية حادة، يجد هذا النائب

أخرق، لأن وزارته ليست في النتيجة سوى «مجتمع سرّي».

يسترسل بيسوا في نصه هذا، وهنا يكمن هدفه الأساسي في الكلام حول الخاصيات المسارية والباطنية للماسونية التي هي «أبدية من الخارج» مبينا حماقة وجهل الدكتاتور سالازار، جامعا بينه وبين الدكتاتوريات الفاشية والنازية والسوفياتية في مواجهة الديمقراطيات، وينهيه بطريقة مستقرة، إذ يسخف الكاثوليكية السالازارية من خلال تطرقه إلى عمليات الحج التي يقوم بها المؤمنون المسيحيون إلى مزار السيدة فاطمة. في حين أن الماسونية، من جهتها، ترفع وبشكل روحاني «الغموض الأولي» للمسيحية، أي ترفعه إلى أعمق تقليد للمسيحية.

بعد الفضيحة التي أحدثها مقاله هذا، من جراء توزيعه بطريقة سرية من قبل الأوساط الماسونية، كتب الشاعر تعليقا ساخرا قال فيه: «لأول مرة في حياتي، صنعت قنبلة. أحطت ديناميتها بمغلف من المنطق. وضعت لها فتيلا من بارود السخرية وما إن انتهيت من ذلك، حتى ألقيتها على معارضي الماسونية، والنتيجة لم تكن مجلجلة فقط بل عجائبية، لقد فقدوا رؤوسهم من دون أن تكون لهم رؤوس في الأصل».

في نصه «حوارات حول الطغيان» (المترجم هنا) نقف، مرة

جديدة، عند بيسوا على لغته الخاصة المحصنة بمنطق التناقضات والمستعدة لتدمير الطغيان الذي كان على وشك أن يتشكل. لقد شعر بهذا الطغيان قبل حدوثه، وقد شكل مادة فقرات كتبها ونجد فيها ذات الصياغات الساخرة والمتناقضة والتي حاول فيها الشاعر تدمير المفاهيم المتساوية بين الطغيان والديمقراطية كي يصل في النهاية إلى هذه السقطة المضحكة: «إن جوهر الطغيان، موجود بسبب أن الأكثرية تمارسه. بعبارات أخرى، إن الطغيان ديموقراطي». لذلك لا يبقى أمام الأكثرية، وكي تكون حرة، إلاّ أمنية واحدة «النضال من أجل أن نصبح أقليّة ». لكن وكما



يقول أحد شخصيات حوارياته هناك مخرج لهذا النضال، يسمح لنا بالتحرر من الطغيان وهو الأزمة والتوازن بين الطغاة». إن تحييد الاثنين فقط يفتح الطريق أمام الحرية. وهنا يأتي السؤال الأساسي «ما هي الحريّة؟» وما من جواب، سوى ما يختتم به أحد الأشخاص الحوار بالقول بطريقة عرّافية: «لقد شاهدت الكثير من الأمور في هذا العالم، لكنني لم أر الحريّة أبدا».

إن غموض بيسوا يكمن بأكمله هنا. هذا الغموض الذي جرّبه بطرق باطنية، هذه الطرق التي فتحها له « فرسان الهيكل» الذي قال انه انتمى إليهم بشكل سري. لذلك نفهم تلك «الوصية الروحيّة» التي

كتبها في شبه سيرته الذاتية في ٣٠ آذار (مارس) من العام ١٩٣٥، أي قبل أشهر قليلة من موته: «احتفظوا دائما بذكرى الشهيد جاك دو مولاي. ناضلوا دائما وأبدا ضد ثلاثة قتلة: الجهل والتعصب والطغيان.»



# إشارة من المؤلف

تشكل الصفحات، عديمة النفع، التي ستلي التعبير - الفني أيضا، بقدر ما يسمح به الموضوع - عن عدد من الأفكار التي جعلتها الحرب الأخيرة (1) تنبثق في هذه الروح الفضولية. فهي نتيجة لتكهنات عقيمة حول أزمة العنف، المتمثلة بالألمان، وحول الحمق، المتجسد في الحلفاء. ومن واجب الذكاء ألا يستسلم أمام الغريزة.

مهما كان عليه المنتصر، العنف أو الحمق، فهذا أمر لا يبالي به الذكاء مطلقا. وأن ينتصر الحمق، فهذا أمر لم يعد يثير فيه الاهتمام على الإطلاق. هذه الصفحات هي احتجاج ضد المنتصر، أيّا يكن، في هذا الصراع، الذي كان يجب، وللآسف، أن يكون للطرف الآخر.



# ا - خمسة حوارات حول الطغيان

## الحوار الأول

**فرانشيسكو:**

من الصعب فعلا تعريف مفهوم الطغيان أكثر من أي مفهوم آخر. بيد أنني أعتقد بإمكانية قول التالي: أنا ضحية الطغيان حين أجد نفسي مجبرا على القيام بأمر ما، أو على عدم القيام بأي أمر، أو حين أدع نفسي تقوم بأمر ما طبقا لمبدأ خارجي لا أتقبله ولا مصلحة عندي بتاتا في أن أخضع له.

**أنطونيو:**

يبدو لي أن هذا التحديد يتضمن الكثير من الأشياء.

**فرانشيسكو:**

لنفكر بالأمر. ما من مجال للشك مطلقا، في أن الطغيان، يتألف بشكل أساسي في ممارسة ضغط ما على المضطهد. كذلك، لا مجال للشك مطلقا، في أنّ هدفه يكمن في إجبار هذا الشخص على القيام بعمل ما، أو في منعه القيام بأي أمر، أو أيضا التدخل لمنع حدوث شيء. هل هذا صحيح أم لا؟




**أنطونيو:**

هذا صحيح.

**فرانشيسكو:**

حسنا. هذا العنف الذي يتعرض له المضطهد، لا يمكن له أن يتأتى إلا من مبدأ خارجي. إذ، إن دفعت إرادتي، إرادتي أنا، إلى أقصى حدودها الممكنة، إذ ذاك، أجدني مجبرا على القيام بفعل يُشعرني بالنفور، على سبيل المثال، العمل؛ فإن منعت نفسي من التصرف كما يحلوَ لي - كالتنزه خلال النهار على سبيل المثال - فأنا لن أشعر بالطغيان، لأن هذا الاجبار يأتي من ذاتي أنا. لهذا السبب، نجد أنه من الضروري، في حالة الطغيان، في أن يكون العامل المتحرك، عامل يأتي من خارج الضحية.

**أنطونيو:**

بالتأكيد.

**فرانشيسكو:**

وبخلاف برّانيته، ليس على هذا المبدأ أن يُقبَل أو أن يتمّ قبوله من قبل المضطهد. مثلا، لو كنت شخصا كاثوليكيا - عبر تراتبية لم أرفضها، أو حتى لو كنت كذلك برضا كليّ - لا يمكن لي رفض

الممارسات والقواعد العائدة للدين الكاثوليكي، برغم أنها تثقل كاهلي، أي لا يمكنني أن أعتبر نفسي عندها ضحية الطغيان، إذ وعلى الرغم من أنّ هذا الاكراه الديني يتأتى من مبدأ خارج عني، إلا أنني قبلت به في نهاية الأمر. بهذا المعنى، لقد أصبح جزءا مني؛ لقد أصبح أنا.




**أنطونيو:**

هذا صحيح.

**فرانشيسكو:**

في أي حال، وزيادة على واقع أنه خارجي وبأنني لن أتقبله، فإن على مبدأ الطغيان أن يُمارس من دون أن يأخذني هذا الاكراه إلى أي أمر، مهما كان عليه. هذه النقطة الأخيرة من التعريف على درجة كبيرة من الأهمية. إذ أنه طبقا للقانون الذي لا يمنحني حق أن أقتل الشخص التالي – على افتراض أن هناك ما يدفعني إلى محاولة القيام بذلك وأن ليس هناك أي سبب أخلاقي يمنعني عن ارتكابه، وعلى افتراض أيضا ان هذه الجريمة قد تلعب دورا لصالحي – فإن ذلك يعطيني أسبقية حقيقية، لأن القانون عينه الذي يمنع القتل يمنع أيضا أن أُقتل. من البديهي أن أتحدث هنا عن قوانين البلاد المتحضرة.

**أنطونيو:**

بالتأكيد، إذ أن من ميزات هذا القانون أنه غير موجود في البرتغال.

**فرانشيسكو:**

لنقل إذًا، إن الطغيان، هو التمرين على القوة؛ القوة التي تجبر شخصا على القيام بأمر أو على عدم القيام به، أو أن يسمح بحدوث شيء ما؛ بأنه يمارس طبقا لمبدأ خارجي عن الفرد المضطهد؛ بأن هذا المبدأ غير مقبول من تلقاء ذاته؛ كما أن تطبيق هذا المبدأ لا يشكل اي منفعة، لا بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة. هل حدّدت الأمر بشكل جيد؟

**أنطونيو:**

لا أعرف.

**فرانشيسكو:**

ما رأيك إذًا؟

**أنطونيو:**

لم توضح بما فيه الكفاية معنى كلمة «مبدأ» في تعريفك هذا.

تتحدث عن «قوة تُمارس طبقا لمبدأ...». ما الذي تقصده بهذا «المبدأ»؟

**فرانشيسكو:**

سأشرح... أقصد بكلمة «مبدأ»، ببساطة شديدة «مصدر القوة». فالقوة تُمارس قبل أي شيء آخر، بواقع وحيد، وهو أنها موجودة، وهي موجودة لأنها تملك سببا في أن تكون، ومهما كانت عليه كنهها، أي أكانت حسنة أم سيئة. لذا، ولاعتقادي بأن سبب كلّ وجود جدير بأن يكون لديه أساس فلسفي أو اجتماعي - وأكان صحيحا أم خاطئا - فقد اخترت كلمة «مبدأ» بدلا من كلمة «مصدر»، وذلك لكي أشير، في هذه الاعتبارات التي أعرضها لك فيما لو تسنى لي ذلك، ولكي أعيّن لك، حين أتكلم عن مختلف أنواع القوة التي يمكن لها أن تُمارس بطرقة طاغية، إلى مصدر أو إلى «مبدأ» هذه القوة. هل فهمت؟ ...

**أنطونيو:**

بشكل سيء جدا. الخطأ الأساسي في التعريفات المتكاملة جدا، يكمن في كمالها عينه. إذ أن أي أمر متكامل لا بدّ وأن يدع شكّا يحوم حول وجودها. أتمنى، في هذه الاعتبارات التي ستحدثني عنها، ألا تنسى في أن تفكر في طغيان الكمال. لا ذلك الطغيان الذي

يعذب الفنانين الرديئين، لأنه طغيان مرتبط بفكرة عدم الكمال والنقص، بل بذاك الطغيان الذي يُعذّب الأرواح البريئة حين تتواجه مع انحرافات المادة المدهشة. على سبيل المثال، أليس الليل الذي يحيط بنا، هو غير متساو بشكل مطلق: ومع ذلك، لترى كم أنه متكامل. لا ينقصه أي شيء، ولا حتى...

**فرانشيسكو:**

فليكن. لندع هذا الأمر الآن، ولتسمع هذا جيدا. بعد أن أكون قد حددت محتوى كلمة «طغيان» بشكل متكامل، أرغب في الإحاطة بجوهر مبدأ الطغيان، كي أرى ما المشترك بينه وبين كل القوى التي تتفاعل، أو مع تلك القوة الجديرة بالتفاعل، في قلب معنى الطغيان.

**أنطونيو:**

إنني أستمع إليك...

**فرانشيسكو:**

إن جوهر الطغيان هو تلك القوة التي ترغمنا، التي ترغمنا بشكل مطلق أو بشكل نسبي – أي بشكل مشروط. ما أرغب في قوله هو هذا: إمّا أنه يجبرنا بشكل مطلق على القيام بهذا الأمر أو على عدم القيام به، من دون أن يكون لدينا أي خيار آخر؛ وإمّا إنه يرغمنا

على القيام أو على عدم القيام بأمر عبر معاقبتنا أو في أن يسبب لنا أذًى أو عقوبات متنوعة فيما لو انحزنا إلى أمر آخر. فالقاتل الذي يطلق عليّ رصاصة في صميم قلبي، وهو مارّ، يجبرني على الموت؛ والكائن الفرد الذي يُشهر بوجهي مسدسه، ويرغمني على توقيع وثيقة لا أريد أو أوقع عليها، نجد أنه لا يُجبرني على توقيعها بشكل مطلق، بل يرغمني على ذلك بشكل مشروط، إذ من الطبيعي أن أفضّل توقيعها بدلا من تفضيل الموت بمثابة «عقاب». من المهم جدا أن نرى بوضوح هذه التفاصيل البسيطة والبديهية: لأننا بذلك سوف نتمكن من السيطرة على المسألة.

في الواقع، ليس هناك سوى نوع واحد من الطغيان المطلق: طغيان الطبيعة. فالفرد الذي يرغمني على الموت حين يطلق رصاصة مسدسه في صميم قلبي، فهو لا يرغمني على الموت بسبب طلقة المسدس، بل لأن هناك قانونا طبيعيا يفيد بأن طلقة في القلب هي طلقة قاتلة. إن استهدفت الطلقة قلبي في الواقع، فلا خيار لديّ ما بين الموت أو البقاء على قيد الحياة؛ بيد أن غياب الخيار هذا ليس من جراء عمل الفرد، بل من جرّاء عمل الطبيعة التي تنصّ عل ذلك، بهذه الطريقة. أما في حالة الطغيان البشري، الذي يمكننا بصعوبة اختيار مثال أقوى من هذا المثال الذي قدمته،

نجد تدخل عنصر الشرط بشكل دائم. عليّ الاختيار ما بين توقيع الوثيقة أو بين الموت. أملك الحرّية في الاختيار. لكن - (وعند هذه النقطة يظهر عنصر الطغيان) - ومهما كان عليه الحلّ الذي اخترته، فهو حلّ سيء بالنسبة إليّ. في هذا الخيار الحتمي ما بين شرّ وشرّ آخر ينوجد الطغيان.

(الطغيان المطلق الوحيد هو طغيان القدر. إن لم تكن الطبيعة كذلك في عينيّ شخص متشائم، فهي ليست طغيانا بحدّ ذاتها؛ وإذا كانت موجودة في نظر المتشائم، فذلك بسبب القدر، الذي هو الطغيان الحقيقي، الذي جعل طبع هذا الإنسان طبعا متشائما... الطبيعة، وأكرّر ذلك، ليست طاغية. لنفترض، على سبيل المثال، أن لدى كائن ما، ميل للشراب، يحب الكحول بشكل مفرط. فإن استسلم لمتعة الشرب، فسيدفع ثمن ذلك بإصابته بوعكات أو بأمراض. لكن السوء الذي سوف ينتج عن ذلك، كان مسبوقا بمتعة. وإن امتنع عن الشراب، فهو سيتجنب هذه النتائج الكارثية، وبدلا من هذه المتعة التي قام بالتضحية بها، فإنه قد حصل على المنفعة. في هذه الحالة، ليس هناك أي نوع من الطغيان، لأن ثمة منفعة قد حدثت في هذا الأمر. وحده القدر، لأنه من دون رحمة، يمكن لنا أن نعتبره، بمثابة طغيان: في الواقع، إن هذا الفرد الذي اتخذته مثالا،

كان القدر قد اختاره إما ليكون شخصا سكيرا، وإمّا ليكون شخصا غير سكير، وفي هذه الحالة أو تلك، فإن ما اختاره قد اختاره لمصلحته).

إن كان جوهر الطغيان هو القوة، فإن الشرط الأول الذي على أي طاغٍ أن يقوم به، يكمن في امتلاك القوة. بيد أنه، ليست هناك، سوى ثلاثة أنواع من القوة: القوة الجسديّة، العدد، المُكر أو اللباقة. من هنا، وإن، في شجار ما تواجه فيه خصمين يُفترض بأنهما متساويان في الشجاعة والجرأة، سنجد أن الأمر سوف ينتهي بانتصار أحد الطرفين، وذلك إمّا لأن أحد هذين الخصمين يبدو أقوى من الآخر، وإمّا لأنّ أحدا قد قدم له يد المساعدة، أو ربما أيضا لأنه محارب أكثر مهارة أو أثر مُكرا. ويجب أن نلاحظ مع ذلك، أمرا بديهيا: إن المُكر أو المهارة لا تشكلان القوة، بل هما فقط طريقة تقوم مقام الضعف أو تقوم بزيادة القوة. كذلك من البديهي جدا، في هذه المسألة التي تشغلنا – مسألة الطغيان الاجتماعي – أن ننتبه إلى أن القوة الجسدية المباشرة، لا أهمية لها. لذا، لا يتبقى أمامنا سوى قوة العدد من أجل ممارسة هذا الطغيان. بمعنى آخر، يكمن جوهر الطغيان في ما تمارسه الأكثرية. بكلام آخر، الطغيان هو أمر ديمقراطي.

**أنطونيو:**

حسنا، حقا إن ما تقوله، جميل جدا.

# الحوار الثاني

**فرانشيسكو:**

لقد فُهمت الظاهرة الأرستقراطية، وبشكل دائم، بطريقة خاطئة، وبالتالي نجد أن الحجج التي قُدمت من أجل الدفاع عنها، كانت تتأسس دوما على قواعد مغلوطة. إذ لقد تمّ تقديم، العديد من الأفكار العائدة للوئام الاجتماعي، أو كلّ أنواع الحجج الأخرى من أجل تبرير وجود الارستقراطية. لكن في الواقع، تكمن الحقيقة، في أن شرعية الأرستقراطية، أو الأرستقراطيات، تملك أساسا عميقا آخر. فأساس الأرستقراطيات، هو القدر.

**أنطونيو:**

القدر؟ ... كيف ذلك؟

**فرانشيسكو:**

سأشرح. هناك، وهذا أمر جليّ وواضح، ثلاثة أنواع من الأرستقراطية – الأولى هي تلك التي تُوّرث، التي تتكون من امتلاك كلّ مزايا المكانة الاجتماعية، السلطة أو المال، وهي المزايا التي يتحصل عليها فرد ما، من جراء حدث وحيد: في كونه وُلِد في هذه العائلة أو تلك؛ الثانية، هي تلك التي تقدمها الطبيعة بشكل

مباشر، والتي تتشكل بكونها تمنح ذكاء أكبر مع الولادة، تمنح حسّا أخلاقيا أكثر، كما المزيد من قوة الإرادة ممّا نجده عند الآخرين. أما الثالثة، فهي التي يمنحها القدر بشكل مباشر، لتحمل كائنا إلى درب الحياة حيث ينتصر، بينما تحمل شخصا آخر إلى درب الفشل؛ هي التي تمنح حصة كريمة إلى هذا أكثر مما تمنحها لذاك؛ والتي، على جبهة إحدى المعارك، تشير بإصبعها إلى القتلى والجرحى والناجين. ما هو عليه أساس الأرستقراطية إذًا، في جميع هذه الحالات، إن لم يكن القدر؟ في أي مكان موجودة إرادتي (على افتراض أنها تتمتع باستقلالية ما وبحرية ما) في هذه التركة الطبيعية التي تحدّد طباعي، في هذه التركة الاجتماعية التي تمنحني المكانة الاجتماعية والاقتصادية والعائلية التي أنحدر منها؟ في أي شيء تمتلك إرادتي، على افتراض كونها حرّة، جزءا في هذه الكوارث التي تحدث في حياتي، في الأمراض التي تنهال عليّ، كما في العديد والعديد من الأشياء؟ ليس ذلك كله، سوى القدر. القدر هو أساس الأرستقراطية.

**أنطونيو:**

لا أرى كيف يمكن لهذه الحِجّة، أو لهذه الفرضية، أن تخدم شخصا ديمقراطيا. يمكن له أن يتقبلها ويستمر في كونه ديمقراطيا.

بل حتى يمكن له أن يقول: حسنا، إن كلّ شيء ينبثق من القدر، لنتخلّى له عن كل شيء! لنسوّي نقاط الانطلاقة – وبتعبير آخر، لنقصي التركة الاجتماعية، كما أسميتها – لكي يتمكن جميع الأفراد في نهاية الأمر، المنطلقين من النقطة عينها، بأن يحظوا بالحظوظ ذاتها أمام ما سوف يكون عليه قدرهم.

**فرانشيسكو:**

لنفهم التالي: أولا، إن ديمقراطيتك المشكوك فيها – ولنفترض بأنه يمكن لها أن تدرك حِجّة مماثلة – يمكن لها أن تدفع بالاستنتاج إلى مكان أبعد ... يمكن لها أن تعتبر بأنّ الاختلافات المفرطة باطلة، ما إن تكون شروط الحياة متساوية؛ وعلينا أن نستنتج منها التأثيرات، بطريقة ما، في التركة الطبيعية عبر اختزال طفيف في التباينات. إلا أن هذه الاثبات خاطئ. فالديمقراطية فرضية خاطئة جدا في ذاتها كما البراهين التي تدافع عنها ضعيفة جدا، وحتى أن الديمقراطيين أنفسهم نجدهم لا يستطيعون التقدم إلى الأمام. المشكلة هي على الشكل التالي: لا يمكن للقدر أن ينتفي عبر مسيرة حياة أحد الأفراد، فلنحاول أن نبعده من البداية. إن التراتبية الطبيعية ليست بين أيدينا، حتى لو افترضنا أنه يمكننا الإمساك بها فيما لو بدلنا التراتبية الاجتماعية. اللحظة الوحيدة

الت يمكننا فيها التأثير بالقدر، هي بداية الحياة. كيف يمكننا التأثير فيه؟ ما الذي يمكننا القيام به؟ أن نحسن قدر كل كائن مع بداية حياته لكي يتمكن في النهاية من الانطلاق في هذه الحياة مع أقل السلبيات الممكنة. فعندما نساوي بين الجميع - أي بمعنى حين يحصل الجميع على نقطة الانطلاق عينها - هذا إن كان ذلك الأمر ممكنا - فسوف ينتج أحيانا، بما أنه ليس هناك لا مساواة طبيعية ولا قدر صاف، تساوٍ لن يكن أقل من وهم. لا يملك بعض الأفراد أي فائدة اجتماعية إلا لأنهم حظوا بميزات عند نقطة الانطلاق. فلو أنهم عرفوا نقطة انطلاق مشابهة للآخرين، لكنّا وجدنا أن فائدتهم أقلّ أهمية بشكل كبير. فلو اهتممنا بهذه المسألة عبر زاوية القدر فقط، لكنّا سنرى بأن التراتبية الطبيعية كما التراتبية الاجتماعية انحدرتا من مصير الأب والأم، بشكل أصبح فيه التساوي مقبولا في جيل واحد: أي أن الجيل اللاحق له سيصبح غير متساو. لا يمكننا أن نصحح أو أن نحاول تصحيح هذا تفاوت القدر هذا عبر المساواة. ما يمكننا القيام به، هو أن نهيئ لبعض الأفراد نقطة انطلاق فضلى: بمعنى آخر، أن نصحح عدم المساواة في القدر التي تشكل الأرستقراطية. فالأرستقراطية تظهر لنا بذلك بسِمتها الحقيقية - إنها تحرّر. القدر بذاته هو تحرر. والامتياز هو الشكل الوحيد للتحرر في هذا العالم؛ في الواقع، وبما أن الحريّة المطلقة

أمر مستحيل، لذا فإن الحرية الوحيدة الممكنة هي الإبراء. الشعب، في زمننا الراهن، قد اختار الدفاع عن الدوغما المسيحية العائدة لحرية الإرادة؛ كان الشعب في القرون الوسطي - وقد كان أكثر اعتدالا - يفهم الحرية بطريقة مختلفة. لذا، فإنّ ما كان يُطلق عليه في القرون الوسطى اسم حرّية، كان يشكل إبراء من شيء ما، من امتياز معين - أي على تناقض تام لما نسميه اليوم «حرية». في اختيارنا عددا معينا من الأفراد، لا يمكننا الاعتماد إلا على أنفسنا، إذ - وبما أننا على غير دراية بالقدر المستقبلي لأي شخص منهم - فإننا نجهل حقا لمن يتوجب أن نوفر أفضل نقطة انطلاق. من هنا، نجدنا نعتمد على الطبيعة، تاركين التراتبية الاجتماعية لتُضاف على التراتبية الطبيعية. بمعنى آخر، أننا نترك كلّ الميزات الأصلية العائدة لكلّ فرد منّا بأن تتعلق بالحالة الأبوية. فعلى هذا المعيار القطعي تتكئ الأرستقراطية. تقوم الروح العلمية بالخطوة الأولى حين تُطبق على أحداث العالم الخارجي، وبشكل خاص على تلك الأحداث العائدة للعالم غير العضوي (أو العضوي بشكلّ أقلّ)، وحين يحلّ مكان مفهوم الصُدفة العائد للقانون الطبيعي. نجده يصل إلى المرحلة الثانية من تطوره حين ينشر مفهوم القانون فوق الظواهر العضوية للغاية ويقصي مفهوم حرية الإرادة. بيد أنه لن يصل مطلقا إلى حالة الرشد إلا حين يُلغي بشكل كامل مفهوم

الصُدفة، وحين يعترف بأن لا شيء في الحياة يمكن له أن يتهرب من القانون، وبأنه لو كنّا نملك تراتبية محددة، وحتى لو لدينا مصيرٌ قدري - مكتوب علينا منذ أن خلقنا: مع السنة والشهر واليوم والساعة والمكان وسبب موتنا. ليس التحديد سوى خجل القدرية. فالمجتمعات العلمية - وهما مجتمعان اثنان، الإغريقي والعربي - كانت قدرية بشكل عميق. ألست من رأيي؟

**أنطونيو:**

بالتأكيد. هاك مقدمة رائعة من أجل مبحث في علم الفلك.

**فرانشيسكو:**

اليونان (القديمة) والعرب كانوا من أفضل علماء الفلك (ومثلما نعرف فإن المصريين والكلدانيين اهتموا بالفلك أيضا). لقد وصل العلم إلى أقصى قممه في هذا الفن. وقمة القمة في العلم تكمن في الاعتراف بأن ما من شيء موجود خارج هذا القانون: بأن لا شيء يفلت من القدر. لقد وصل العلم إلى كماله حين، وبعد أن اعترف بأن الحتمية هي بمثابة حقيقة، سلّم بأن دراسة الفلك هي بمثابة علم. وإذ ما تضمن هذا العلم بعض الأخطاء فإنها ليست سوى أخطاء في التشخيص، تماما كما في الطبّ، إذ من أحد يشكّ في أنه علم، بأن لديه أسس علمية.

**أنطونيو:**

تتحدث مثل بسمارك. ما الذي يعينه ذلك سوى أن القوة تهيمن على الحقوق؟

**فرانشيسكو:**

أبدا، ليس الأمر على هذا المنوال. أن نقول إن القوة تهيمن على الحقوق، هذا يعني أن القوة أقوى من الحق؛ بمعنى آخر، إن القوة قويّة، وهذا ما تعبر عنه الكلمة بحدّ ذاتها. ما يسيطر على الحق في الواقع، ليست القوة، بل تنظيم القوة، ذكاء الوقة. ما معنى الحق؟ توازن قوى تتكئ على قواعد الاستمرارية والتوازن. فإن كانت للقوة الكلمة الأخيرة، فسنجد في ذلك قطيعة مع التوازن، أي لن يكون لدينا عندها توازنا حقيقيا.

يُشكل الصراع من أجل أن نكون أقليّة كلّ تطلعات الأكثريات التي تغذّي بعض الطموحات. بيد أن أكثرية لا يمكن لها أن تكون أقليّة إلا حين لا تكون على حق، بمعنى آخر، حين تُشيّد الحق الذي ينقصها، على أنه مبدأ قوي، أي أكثرية داخلية.

ليس التأمل ملجأ الكائنات الضعيفة بل هو ملجأ الأقوياء الضعيف.

فهنا، حيث يفشل التنظيم الاجتماعي، مهما كان عليه، مجد هزيمة العقل.

برهنة أمر ما، يشكل طريقة أقل راحة من التفكير. يبدأ الاستنباط عبر إيمان باستنباط ما وينتهي بالإيمان بنتائج هذا الاستنباط. الاستنباط (أي البرهنة)، هو أن نؤمن على مهل. هو أن نأخذ وقتنا لكي نصل إلى المزاج.

إن ذاك الذي يتنزه طيلة اليوم في غرفته البالغ طولها خمس أو ست أمتار ينتهي به الأمر بأن يقطع كيلومترات عدّة. بيد أن المشكلة تكمن في أننا لا نقوم بأي خطوة خارج أجسادنا نحن، كما أننا لا نسير أبدا خارج مشيتنا.

أي طغيان يرغب في الهرب منه ذاك الذي يتصرف مثل طاغ؟

أي حرية يطالب بها، ذاك الذي نجده غير جدير بالقيام بأي حركة، الذي لا يملك أدنى فكرة بعيدة عن المخ الأبوي؟ ضد أي طغيان يثور؟ يا بنيّ، لقد سبق لي أن رأيت الكثير من الأشياء في هذا العالم، إلا أنني لم أرَ الحرية بعد.

# الحوار الثالث

**فرانشيسكو:**

يتسمَ المجتمع المتحضر بعنصرين – الاستقرار والتقدم. فإن كان (هذا المجتمع) لا يؤمن الاستقرار، فسوف يصبح فوضويا، وعندها يبدو كلّ تقدم أمرا مستحيلا؛ وإن لم يتقدم، فلا يمكن له أن يصبح متحضرا أبدا.

الاستقرار الاجتماعي لا يحتّم أبدا عدم وجود دولة طغيان مطلق [...].

الحالة الاجتماعية التي تحيل التقدم ممكنًا هي التوازن في الطغيان. فكلما كان الميل إلى الطغيان قويا من كِلا الطرفين، كلّما كان التقدم خصبا.

**أنطونيو:**

بيد أن ذلك يعني أنّ الطغيان هو سبب التقدم، أو على الأقل، فهو يشكل شرطه.

**فرانشيسكو:**

كلا. لم أقل الطغيان، بل الصراع والتوازن بين طغيانين. يولد

التقدم من واقع أن العنصرين يلغيان بعضهما البعض بشكل مستمر، وليس من الفعل الخاص بكل واحدٌ منهما ولا من فعليهما الموحديّن.

لو لاحظت جيدا، لرأيت بأن الأعمال التي تستمر أكثر في روح البشر كانت تلك التي أنتجت في عصور الحرب الأهلية المعلنة أو الوشيكة الوقوع. بيد أن ذلك لا يعني بأن حالة ثورة ما هي السبب - بدون هذا - في عمل يدوم. بل أن حالة الثورة هي [...]

التقدم هو ثورة ضد النوع. فليس من العبث أن نقول إنّ العباقرة هم مرضى أو مجانين. العبقرية هي لا تكيف، أي أنها مرض، لأن العبقرية إبداع. أن تبدع أي أن تكون غير راضٍّ.

**أنطونيو:**

أن تبدع أي أن تكون غير راضٍّ. كلّ إبداع معناه أننا نرفض ما ليس بحاجة لأن يكون مُبدَعًا. الحركة المتكاملة اليوم تشكل ثورة بوجه حركة الأمس المتكاملة. الابداع، هو أن نمتنع. الابداع، هو أن نقول حقيقة بسيطة بهذه الكلمات العبثية [...].

الرغبة في الإبداع هي ظاهرة للمتخيل، جريمة الملائكة التي اعتقدت بأن بإمكانها الحصول على سماء أفضل.

**فرانشيسكو:**

الجزء المنطقي الوحيد للدين، هو التطيّر. التطيّر هو الاعتراف المتخوف من امتداد المجهول.

الدين هو تعريف المجهول؛ إنه التوصيف الجغرافي المفصل لما نجهله.

لهذا السبب نجد أن شعبا سالما مثل الإغريق في الأزمنة الغابرة كان متطيّرا أكثر من كونه دينيا.

# الحوار الرابع

**أنطونيو:**

[...] محاكم التفتيش؟ محاكم التفتيش الوحيدة الموجودة اليوم هي الغباء...

**فرانشيسكو:**

أبدا. إن محاكم التفتيش التي كانت تحرق غير المؤمنين والمشبوهين، والاضطهادات الدينية التي كانت تعدم المعارضين، ما من شيء في ذلك كله يشكل طغيانا دينيا: إنه طغيان سياسي، الطغيان الديني أمره مختلف، إنه شيء أكثر ذكاء، أكثر فحشا.

يمتلك الطغيان الديني سمة وراثية وتربوية. إذ أنني في كلّ مرّة أشعر فيها بأن الحياة تسحقني وبأن المرارة تخنقني، أجدني أفكر، وأنا في قمة كآبتي، بالصلاة، بالرجوع إلى فكرة المسيح - بينما أنا عبد الطغيان الديني الحقيقي. في كلّ مرّة، حين أكون أمام الفقراء [...] أشعر بعاطفتي التي تثور، أشعر بالشفقة وأبدأ بالبكاء على مصير العالم، هنا، أنا عبد الطغيان الديني. هذا هو الطغيان الديني. أما الطغيان الآخر، ذاك الذي يحرق الكافرين ويطرد الوثنيين، فكما قلت لك، هو طغيان سياسي يُمارس باسم الدين. ففي اللحظة التي

يفقد فيها الدين قوته السياسية، يتوقف هذا النوع من الطغيان عن التواجد.

# الحوار الخامس

**أنطونيو:**

لنفترض، في هذه الأثناء، أن هذا الكتاب المزعوم سيكون صالحا للنشر، ما ستكون عليه الفائدة من نشره.

**فرانشيسكو:**

الفكرة المعبّر عنها تُشكل قوة؛ فتأكيد حقوق العقل لم يكن يوما زيادة عن الحدّ.

**أنطونيو:**

الفكرة المعبّر عنها هي نقص في القوة – قوة أن نصمت. يُعلّم الأساتذة عبر الكلمات، لكنهم يتعلمون عبر الصمت.

**فرانشيسكو:**

إن دور المثقفين (في عصر كعصرنا حيث ما من شيء مكروه أكثر من العقل)، يكمن في خلق مناخ صالح للعقل، في التعريف بالعق على أنه قوة، أو على الأقل، على أنه شيء موجود.

**أنطونيو:**

في هذه الحالة، إن الحدث الأكثر أهمية في كتابك، هو أنه لم

يكن حدثا أبدا.

فرانشيسكو:

اليوم، نجد أن العقل، وكما في جميع عصور الانحطاط، يضع نفسه في خدمة الغريزة. لدينا كل الظواهر المختلفة، النموذجية، الخاصة بحقبتنا - اللاعقلانية عند نيتشه، غرائزية التيّارات التقليدية، البراغماتية، جميع أنواع التيّارات الحدسوية - مجموع التيّارات التي تنتصب من اللافهم وكأنها أفضل أشكال هذا الفهم. يا لهذه السخرية المرّة التي عرفها مصير نيتشه الذي أعتقل في مصح للمجانين، هذا المدافع الحقير عن أرستقراطية العوام!

أنطونيو:

أشك في أن تكون هذه الكلمات حقيقية.

فرانشيسكو:

إنها حقيقية. كل ما هو غريزي، يتصل بالعوام، وكل من يقف ضد العقل، هو غريزي [...]

لا يمكن للحرية الفردية أن توجد إلا إذا امتلكنا الحرية الاجتماعية، وبخاصة الحرية الاقتصادية. بِمَ تنفعني حرية أن أكتب رواية، إن - ولأسباب تتعلق بالمزاج - لم أستطع العمل إلا إن كنت

مركزًا، أنا الذي عليّ أن اذهب كل يوم إلى المكتب (للعمل).

في حين أن الحرية الاقتصادية موجودة بسبب واقع وجود الرأسمال. وهذا مستحيل، كونيا، بينما الاشتراكية، وبدلا من أن تكون حريّة اقتصادية، فقد انتهى بها المطاف بأن تكون غياب كامل للحرية. تفرش الاشتراكية أمام الجميع عبودية الأغلبية. وهم العبيد الذين يريدون أن يتحرروا: هم العبيد الذي يرغبون في تحويل العالم بأسره إلى عبودية. فإن كنت شخصا أحدب الظهر، فعلى الجميع أن يكونوا كذلك.

لهذا السبب نجد أن الطبيعة، ومن دون أن تكون راغبة فعلا في ذلك، وبطريقة عاقلة، دفعت بالإنسان لأن يقوم باختراع الامتيازات. الأرستقراطية، هي الوسيلة لكي نفكر بحرية. يقال إن غالبية الكتّاب يشعرون بالأفضلية بسبب وضع عائلاتهم الاقتصادي. ويُعتقد أنه من البائس بأن لا يكون آخرون كذلك. لكن، في الواقع، تكمن المشاعر الطيبة في التضاد: علينا أن نشعر بالفرح تجاه أولئك الذين تمّ اختيارهم وأن لا نشعر بأي أسف - إلا الأسف العاطفي - على الآخرين الذين لم يحظوا بذلك.

كان أناس العصر الوسيط على حق في اعتبارهم أن الحرية ليست بمثابة حق، بل أنها بمثابة امتياز.

# II - معاهدة الإنكار

تشكل العالم من قوتين ذات طبيعتين: القوى التي تؤكد والقوى التي تنكر.

القوى التي تؤكد هي قوى العالم المبدعة، المنبثقة تباعا من الواحد، مركز التأكيد.

القوى التي تنكر تنبثق مِن ما وراء الواحد.

الواحد، الله، الإله خالق الأشياء، ليس سوى تمظهر، ليس سوى وهم. الخلق بأسره هو تخييل ووهم. تماما كما أن المادة هي وهم - وقد تمّ إثبات ذلك - بالنسبة إلى الفكر؛ والفكر هو وهم بالنسبة إلى الحدس؛ والحدس، وهم بالنسبة إلى الفكرة الصافية؛ الفكرة الصافية وهم بالنسبة إلى الوجود. والوجود بشكل أساسي وهم وخطأ. الله هو الكذبة الأسمى.

القوى التي تنكر هي تلك التي تنطلق مِن ما وراء الواحد. فخارج الواحد، بالنسبة إلى عقلنا، لا يوجد شيء. لكن وحتى إن كان من الممكن التفكير بأن هذا الواحد غير موجود، وحتى إن كان من الممكن إنكاره، فهو ليس الواحد، الأسمى، الأسمى الحقيقي. أن نتمكن من إنكاره هو إنكاره، يرقى إنكاره إلى ما هو ليس كذلك.

الإنكار الأسمى هو ما نسميه اللاوجود. لا يمكن التفكير باللاوجود، لأن التفكير فيه يعني أن لا نفكر. ومع ذلك، ونظرا لأننا نستعمل عبارة اللاوجود، من الممكن التفكير فيه، بطريقة ما. فبدءا من اللحظة التي نفكر فيه، يصبح وجودا. هكذا ينبعث الوجود بشكل متعارض مع اللاوجود. اللاوجود هو ما يسبقه، لكي نتكلم بلغة البشر.

المادة، التي تشكل أكبر حالات نفي الوجود، هي، ولهذا السبب، الحالة التي هي أقرب إلى اللاوجود. المادّة هي أقل الأوهام، أضعف الأكاذيب. من هنا سمتها بالبداهة. وبقدر ما يتجلّى الوجود، نجده ينفي نفسه؛ وبقدر ما ينفي نفسه، يخلق اللاوجود. وبما أن اللاوجود سابق للوجود، فإننا نجد أن هذا النفي الذي يقوم به الوجود لنفسه، هو عملية خلق، إن كان يمكننا أن نعبر بهذه الطريقة.

يتوجب علينا أن نكون مبدعي النفي، منكري الروحانية، بنائي المادة. المادة هي المظهر؛ المظهر، وفي الوقت عينه الوجود واللاوجود (إذ إن لم يكن المظهر هو الوجود، فهو اللاوجود. وإن كان اللاوجود فهو ليس المظهر. لكي يكون مظهرا، عليه، في النتيجة، أن يكون الوجود).

يكمن النفي في مساعدة المتجلّي على الظهور بشكل أكبر، على

أن يتحلّل في اللاوجود.

هناك مبدآ صراع. مبدأ التأكيد، والروحانية، والتصوف، الذي هو مبدأ المسيحي (بالنسبة إلينا حاليا)، وهناك مبدأ النفي، والمادية والوضوح، الذي هو وثني. «لوسيفير» - حامل النور، هو الرمز الاسمي لروح الانكار. لقد ولّد تمردّ الملائكة المادة والعودة إلى اللاوجود وتحرير التأكيد.

كلّ العوالم التي أكدّها التيوصوفيون هي موجودة بالفعل. بيد أنها موجودة داخل الوهم، الذي يُشكل الواقع بقد ما هو موجود. الله موجود بالفعل، بالنسبة إلى نفسه. بيد أنه يخطئ. فكما يعتقد الجميع أنهم موجودون، ولا وجود لله إلا كجزء من أنفسهم، فإن هذا، في المطلق، غير موجود؛ لذلك يؤمن الله بوجوده ولكنه غير موجود. الوجود بحدّ ذاته هو عدم وجود الكينونة فقط، التأكيد الفاني على الحياة.

## III - الحنان اللوزيتاني (2) أو روح العِرق

إن العادة في تعريف اللغة البرتغالية على أنها لغة غنائية في المقام الأول، أو أنها لغة عاشقة بشكل أساسي – هي عادة سخيفة، إذ عمليا، ما من شعب إلا ويملك هذين الأمرين. لكن وفي الوقت عينه، وعلى الرغم من فشل التعبير، إلا أننا نرى أن ثمة شيئًا حقيقيًا لا ننجح في اكتشافه في هذه الجُمل.

إذ ما هي السمة البرتغالية المتعذر تحديدها، وما هي السمة البرتغالية المشتركة، خارج اللغة عند كلّ من برناديم ريبيرو، كامويش، غاريت، أنتيرو دي كوينتال، أنطونيو نوبري، جونكيرو، كورييا دي أوليفيرا، باسكوايش، ماريو بيراو؟

في المقام الأول، هو الحنان. لكن ما هو هذا الحنان؟ حنان غامض [...] عند برناديم ريبيرو، حنان يقطع لِحاء الغرابة مع كامويش، وهو يصل إلى ذروة حنانه البطولي والميتافيزيقي مع أنتيرو، وهي مرحلة فضولية للغاية من الحنان الذي يعطي جوهرا للتجريد ويمكن له أن يحبّ إلها حتى لو كان [...] على شكل صيغة رياضية؛ إنه الحنان للمناظر الطبيعية عند فيالو، وحنان يظهر في نوافذ الروح عند إيسا دو كويروش.

إن تسمية الشمس «شمس الله الصغيرة» هي ظاهرة خاصة من الحنان. في هذه العبارات، توجد بِذرة كلّ ما هو وطني.

# IV - حوليات الحياة التي تمر

## - ١

في الفترة الأخيرة، وفي غبار بعض الحملات الانتخابية، عدنا لنرى من جديد، انبثاق هذه العادة الشنيعة عند بعض المجادلين، التي تتشكل من الأخذ على أحدهم مأخذ تغييره الحزب مرة أو أكثر، أو في مناقضة نفسه باستمرار. فعامة الناس، الذين اعتادوا على الإدلاء بآرائهم، يستمرون في اللجوء إلى هذه الحِجّة كما لو أنها كانت حِجّة ازدرائية. ربما لم يتأخر الوقت بعد من أجل تحديد، وحول موضوع حساس إلى هذه الدرجة في العلاقات الثقافية، الموقف العلمي الصحيح.

فإن كان هناك من حقيقة غريبة لا يمكن تفسيرها، فهي فعلا رؤية مخلوق يتمتع بالعقل والحساسية، وهو يبقى جالسا إلى الأبد فوق رأي واحد، متناسق دائما مع نفسه. كلّ شيء يتحول باستمرار، في جسدنا أيضا، وبالتالي في عقلنا. كيف إذًا - هذا إن لم يكن سبب ذلك الأمر عائد إلى مرض ما - نسقط مرارا وتكرارا في هذا الشذوذ أي في هذه الرغبة في التفكير، اليوم، مثلما كنّا نفكر بالأمس، في حين أيضا، أن ليس فقط عقل اليوم لم يعد عقل

الأمس، بل أن نهار اليوم لم يعد هو ذاته نهار الأمس؟ التماسك هو مرض، بل ربما هو تأسل (3)؛ فهذا الأمر يعود إلى أجدادنا الحيوانات، إلى مرحلة من مراحل تطورهم حيث كان هذا العار أمرا طبيعيا.

أضف إلى ذلك فإن التماسك والقناعة واليقين هي براهين بديهية – وغالبا ما تكون عديمة النفع – عن النقص في التربية. إنه أيضا نقص في مجاملة الآخرين حين تبقى أمامهم دائما الشخص ذاته؛ سيسبب لهم ذلك الضجر، ستزعجهم عدم قدرتنا على التنوع.

إن كائنا يتميز بأعصاب حديثة، وذكاء من دون وميض، وحساسية يقظة، لديه واجب عقلي في تبديل موقفه ويقينه مرات عدّة في اليوم. عليه أن يمتلك، لا إيمانا دينيا أو آراء سياسية أو ميولا، بل عليه أن يمتلك أحاسيس دينية وانطباعات سياسية واندفاعات من الاعجاب الأدبي.

تبدو بعض حالات النور الذهنية، بعض مواقف المناظر الطبيعية صحيحة، وبخاصة إذ كانت تطلب بشكل مفرط، من ذاك الذي يقف أمامها، آراء سياسية ودينية وفنية محدّدة، تلك الآراء التي تقترح والتي تتبدل، بالطبع، وفق تنويعات هذه السمة الخارجية. يصنع الإنسان المنضبط والمثقف من حساسيته ومن ذكائه مرايا البيئة

الانتقالية الغامضة؛ إنه جمهوري في الصباح، فوضوي عند الغسق؛ وملحد تحت شمس ساطعة وكاثوليكي في بعض ساعات الظلّ والصمت؛ وهو لا يحلف إلا باسم مالارميه في تلك اللحظات التي يحلّ فيها الليل على المدينة وحين تزهر الأنوار؛ لا بدّ أن يشعر بأن كلّ هذه الرمزية ليست سوى اختراع مجنون لا يعرف، حين يكون وحيدا أمام البحر، ما هي عليه الأوديسيه.

ثمة قناعات راسخة، لا يملكها إلا الكائنات المصطنعة. فأولئك الذين لا ينتبهون إلى الأشياء، لا يرونها مطلقا إلا لكيلا يصطدموا بها، هؤلاء نجدهم دائما أصحاب رأي ثابت، إنهم جميعا من طينة واحدة، ومنسجمين. إنهم مصنوعون من الخشب الذي يستعملونه في السياسة والدين، لذلك يحترقون بشكل سيء أمام الحقيقة والحياة.

متى سننتبه إلى ذاك المفهوم الصائب، بأن السياسة والدين والحياة في المجتمع ليست سوى الدرجات الأدنى والعامة من علم الجمال – علم جمال أولئك الذين غير مهيئين بعد لامتلاكه؟ فقط، حين تتحرر إنسانية ما من أحكام الإخلاص المسبقة ومن الانضباط وحين تُعوّد أحاسيسها على العيش باستقلالية، عندها يمكن لنا أن نصل، في الحياة، إلى ما يشبه الجمال والأناقة والطمأنينة.

# - ٢

بدون شك، إن من أكثر السمات التي تميّـز روح الشعب البرتغالي، إفراطه في الانضباط. نحن شعب منضبط بامتياز. لقد حملنا الانضباط الاجتماعي إلى درجة من الافراط حيث لا شيء، يمكن له أن يكون أمرا جيدا، أو أن ينقصه في أن يكون ضارّا - ولا أعتقد بأن الانضباط يشكل سمة من ذلك.

تبدو الحياة الاجتماعية البرتغالية دقيقة ومنتظمة ومنظمة جدا، لدرجة أننا نشبه معها جيشا أكثر من كوننا أمة أناس تمتلك وجودا فرديا. لا نجد عند البرتغالي عملا شخصيا، يقطع فيه مع محيطه، أو يدير فيه ظهره لجيرانه. إنه يتحرك دائما وفق جماعات، يشعر دائما وفق جماعات، يفكر دائما وفق جماعات. إنه ينتظر الآخرين دوما من أجل القيام بأي شيء. وحين يحدث له أحيانا، عبر أعجوبة أن يتجرد من جنسيته، بشكل مؤقت، في أن يخون وطنه بحركة أو بتفكير أو بشعور بشكل مستقل، نراه لا يذهب أبدا في جرأته هذه إلى أقصاها، لأنه لا يتوقف عن النظر إلى الآخرين ويبقى محترسا من انتقادهم.

إننا نشبه الألمان كثيرا. نحن مثلهم، نتصرف وفق جماعات، وكلّ شخص، في هذه المجموعات، يتصرف لأن الآخرين تصرفوا من

جهتهم.

لهذا السبب، هنا كما في ألمانيا، نجد أنه من الصعب جدا تحديد المسؤوليات؛ هو دائما خطأ الشخص السادس، حين لا يكون هناك سوى خمسة أشخاص قاموا بعمل ما. ومثل الألمان، نحن ننتظر الأوامر دائما. ومثلهم، نعاني من مرض السلطة – أن نطيع كائنات لا أحد يعرف لِمَ علينا أن نطيعهم، لِم نذكر أسماء أشخاص ليس لديهم، موضوعيا، أي مرتبة لنذكرها، نتبع قادة لم يبرهنوا مطلقا عن أي كفاءة ليتحملوا مسؤولية فعلتهم. مثل الألمان، نعوض عن قسوة انضباطنا الجوهري عبر عدم انضباط مصطنع كأولاد يلعبون بالحياة. نتذمر، لكن بالكلام فقط. ننتقد، لكن في الخفاء فقط. وطبيعتنا الحقيقية تكمن في أن نكون حسودين وفظين وبرابرة، لأن ذلك يشكل صفات أي مخلوق سحقه الانضباط، أي مخلوق يعاني من ضمور الفردية.

بالتأكيد، نختلف عن الألمان ببعض النقاط الواضحة في إنجازات الحياة. بيد أن هذا الاختلاف ليس سوى ظاهريا. لقد رفعوا الانضباط الاجتماعي، الذي يتوافق مع طبائعهم كما يتوافق مع طبائعنا، إلى نظام دولة وحكومة؛ بينما نحن، الأشد انضباطا وتماسكا، لم نفرض يوما انضباطنا الاجتماعي القاسي لنجعل منه

دولة أو حتى إدارة عامة. منطقيا، لقد تركنا ذلك كلّه للمجتمع. من هنا انحطاطنا!

إننا غير جديرين بالقيام بأي ثورة أو تحرك. حين قمنا بـ «ثورة»، فعلنا ذلك، لكي نزرع شيئا مماثلا لما كان عليه سابقا بالضبط. لقد أفسدنا هذه الثورة بالتساهل الذي عاملنا به المهزومين. لم ينتج عن ذلك حربا أهلية كان يمكن لها أن توقظنا؛ لم ينتج عن ذلك أي فوضى سياسية، أي تغيير في الوعي. لقد بقينا مثلما نحن عليه بشكل بائس، منضبطين، كما في السابق. كان الأمر مجرد حركة طفولية، مصطنعة، خدعة.

البرتغال بحاجة إلى شخص «غير منضبط». كلّ «غير المنضبطين» الذين جاءوا، أو الذين رغبنا في الحصول عليهم، قد فشلوا. وكيف لن يفشلوا وهم ينتمون إلى العِرق عينه الذي ننتمي إليه؟ الوجوه النادرة التي انبثقت بين وقت وآخر في حياتنا السياسية والتي كانت تتمتع بصفات مفيدة لتثير الاضطراب، رسبت رأسا، إذ سرعان ما خانت مهمتها. ما هو أول شيء قامت به؟ قامت بإنشاء أحزاب... ثمة قدرية متوارثة من الأسلاف عاد لتسقطها في الانضباط.

على الأقل استعملونا - نحن الشبّان - في إثارة الروح، في

تشويش الأرواح. لتنزعوا فينا التحلل الروحي مثل زهرة نادرة. لنبني فوضى برتغالية. لنبحث بدقة عن السقيم والمذيّب. وستكون مهمتنا، لا الأكثر تحضرا أو الأكثر حداثة فقط، بل أيضا الأكثر أخلاقية والأكثر وطنية.

٨ نيسان ١٩١٥

# - ٣

في كلّ مرّة يبدأ فيها شخص ما، مناقشة طباع الشعب البرتغالي، يمكننا أن نتكهن - بأنه في لحظة ما من هذا النقاش - سيقول إن إحدى أكثر مَلَكات روحنا تميّزا هي الخيال الزائد. ولصُدفة من المتعذر تفسيرها، فإن هذا التقييم المبتذل، صحيح. إذ من المؤكد بأن البرتغاليين يعانون من الخيال المفرط.

إلا أن المخلوقات ذات الخيال المفرط مصابة، بشكل قدري، بعيب واح؛ وهذا العيب هو النقص في الخيال.

قد يبدو هذا الأمر متناقضًا، بالنسبة إلى شخص يعتقد، بسذاجة، أن هناك مفارقات في هذا العالم. ومع ذلك، فإن هذا الزعم، يمكن إثباته بسهولة، لدرجة أنه لا يجدر الإشارة إلى الطريقة التي يقدم بها نفسه.

لنأخذ على ذلك مثالاً معروفًا. مثل حال الأدباء المعاصرين الذين يتحمسون في أعمالهم للمجانين، والمتشردين والمجرمين - المولودين، أو أيضا، وبدرجة أقل دموية، إلى البروليتاريين «المحطمين والمضطهدين» كما إلى أشياء أخرى مماثلة.

إلاّ أنّ، كلّ فنّان - وإن لم يكن ذلك بسبب حالته الاجتماعية، بل

بسبب مزاجه على الأقل – هو حقا وفي الواقع، على العكس ممّا هو عليه كلّ المجانين، والمجرمين – المولودين أو البروليتاريين. لذا، يترتب على ذلك التالي: لا يمكن لتعاطفه مع مخلوقات مماثلة، أن ينشأ، إلاّ من الحاجة العنيفة لنشر موضوعات البيئة التي يعيش فيها – وكذلك من المحيط الاجتماعي، ومن الأشخاص المسالمين، الفصيحين فقط، التي تحيط بالفنانين، أكثر من هذه البيئة المتوترة، إن جاز التعبير، أي أنّ التصرف الراقي والمتطلب هو الجوّ الروحي الذي يعيش فيه الفنان مع نفسه. ومن الواضح أن هذه الحاجة للخروج من الجو النفسي الذي يحيا فيه هي ثمرة التخيّل المفرط. علاوة على ذلك، فإن النوع الأدبي الذي يؤكد عليه هذا النوع من المؤلفين – هو الموضوعات المفرطة، والمشاعر المبالغ فيها، والأسلوب المعقد والمريض – فكل هذا يؤكد أنها ظاهرة من الخيال المفرط.



لكن، إذا وضعنا أحد هؤلاء المتأدبين بين المجرمين – المولودين، أو بين المجانين الحقيقيين أو بين البروليتاريين الحاضرين، ونقوم بإدانته لا بعدم التجول في هذا المحيط، بل بالعيش فيه، فسنجد أن هذا اليائس، سيحاول الهرب منه، حتى لو منعناه من القيام بذلك. الحالة العصبية عينها، الخيالية المرهفة، التي تمنحه إيّاها

حماسته لهذه الدوائر، سنجد أنها ستنتزع منه فيما لو بقي هناك قليلاً.

ما التفسير الذي يمكن لنا أن نعطيه لهذه الظاهرة؟ إنه ذاك الذي أعطيناه منذ البداية: الاختلال التخييلي الذي يسِم المفرطين بالخيال. إذا قام الفنان، في ذهنه، ببناء تمثيل واضح لهذه الشخصيات التي تجذبه، فإنه بذلك قد نجح في تخيّلها إلى الأبد، بوضوح مطلق، لذا فإن وضوحا مماثلا سيكون، بمثابة مقدمة لهذه البيئات عينها ما سيؤدي فورا، إلى هذا الاشمئزاز بالنسبة إليهم مثله مثل أي اتصال حقيقي ينتجه.

حدثت هذه التظاهرة بأسرها بسبب خيال البرتغاليين المفرط.

والغرض من هذا الاستحضار هو حقيقة أنه يمكننا تحديد العلاج الذي يجب تطبيقه في هذه الحالة بوضوح. فمن خلال العرض التوضيحي الذي قدمناه، يُشار إلى العلاج تمامًا، هنا، وكذلك في المعالجة المثلية، **similia similibus curantur**، لا يمكن علاج الإفراط في الخيال عند البرتغاليين، والذي يضر بهم كثيرًا، إلا عن طريق «ثقافة متنامية» من الخيال البرتغالي. إن تثقيف الأجيال الجديدة بالأحلام أو بالخيال، من خلال العبادة الطويلة والمريضة للحياة الداخلية، يرقى إلى تثقيفهم من أجل الحضارة والحياة. إلى

جانب كونه سهلًا وممتعًا، يقدم العلاج نتائج مضمونة.

١١ نيسان ١٩١٥

في روسيا - وخلافا لما يُشاع - تستمر الاضطهادات السياسية. قبل قليل، تمّ إعدام (شنقا) العقيد الروسي مياسويدوف، بسبب الخيانة. في الواقع، لقد تمّ إثبات أنه كان خائنا. لقد باع نفسه للألمان، الذي سرّب إليهم خططا عسكرية... إذًا، أين الاضطهاد السياسي في هذا الأمر؟

قبل أن نجعل أنفسنا تتأثر بالحقيقة، لنرى أولا ما معنى الخيانة.

الخائن، ببساطة، هو كائن فردي. وبعيدا من أن تكون فعلا يستوجب المحاكمة، ليست الخيانة سوى رأي سياسي - وحتى هي رأي فلسفي، كما هي عليه، في العمق، كل الأفكار السياسية.

الحرب هي عملية استبدال - في الأخلاق كما في الفعل - لمعيار التوسع بمعيار الكبت. كل حياة اجتماعية، وبشكل طبيعي، تُقاد بمبادئ ذات قاعدة تتمثل بكبت الغرائز، وذلك لتجنب أن تلحق الضرر بالآخرين. ما يحدث في الحرب، هو أمر معاكس. إذ، في هذه الحالة، نرى أن الغرائز تفلت من عقالها بشكل منهجي. إذ تطفو على السطح أعماق الإنسان الخاصة بالعنف والصراع. فحلّ المشكلة على الطريقة الحيوانية يصبح أمرا شرعيا. فتسيطر عند ذاك الأنانية

المطلقة، وصراع بدون هوادة على الحياة. وليس الأمر، هنا، سوى إلحاق الضرر بالآخرين.

بخلاف ذلك، فإن الخائن هو شخص يجازف بمصالح بلاده، من أجل الكسب المادي أو من أجل أي مصلحة شخصية أخرى. بمعنى آخر، نجده ينصاع لمعيار أناني، ينصاع إلى غريزة الربح، إلى مصلحته الشخصية. وهذا ما يعيد تذكيرنا بالضبط، بأخلاق الحرب عينها.

يكمن الخلاف في واقع تأويل هذه الأخلاق بمعنى فرداني، بينما يؤخذ عادة بمعنى التضامن. إنها مسالة سياسية أو فلسفية. لذا علينا ان لا نقوم بقتل مخلوق من أجل آرائه الفلسفية.

لكن سيقول شخص ساذج، إنه في جميع الأحوال ستشكل الخيانة خطرا على الوطن، على الجماعية؛ إنها مخاطرة عظمى لا يمكن الاستسهال بها. في هذه الحالة، علينا أن نحاكم، كما في حالة مياسويدوف، رجال الدولة الذين أدخلوا البلاد في حرب «لن تخرج منها منتصرة أبدا». إنهم هؤلاء الذين يخاطرون بالبلاد دفعة واحدة، ولا يمكننا في هذه الحالة أن نستعيد ما سبق أن قلناه عن الخائن، بأنهم فعلوا ذلك بسبب تأويل فلسفي للحرب، مختلف عن التأويل الشائع. لقد قاموا بهذا الأمر وفق التأويل الشائع، ما يجعله

أكثر لباقة، لكنه في الواقع، تأويل عديم الأخلاق بشكل أكبر.

١٥ نيسان ١٩١٥

# - ٥

قد تكون السمة المشتركة بين مختلف التظاهرات الشعبية، وربما أصعب ما فيها، هي محاولة تأويلها. ففي شكل عام، أي شخص يحضر واحدة منها أو يستمع إلى ما يقال فيها، نراه يجري إلى تأويلها ببراءة وفقا للوقائع التي حدثت فيها. في حين أنه لا يمكننا أبدا أن نؤولها وفقا للوقائع مثلما جرت. لا شيء من ذلك يحدث. علينا أن نُعدّل الوقائع وفق ما جرت، وذلك كي نفهم ما حدث بالفعل. لقد اعتدنا على القول إنه مقابل الوقائع، ليست هناك أي حجج. في حين أنه بالضبط، وفي مقابل هذه الوقائع، ثمة ما يتطلب محاجاته. تقريبا، الحجج هي أصحّ من الوقائع دائما. فالمنطق هو معيارنا إلى الحقيقة، وفي الحجج - لا في الوقائع - يمكن لنا أن نجد منطقا.

أما بالنسبة إلى سمة التظاهرات - كنت أقول - إن أصعب ما فيها، هو تأويلها. إذ أنه، على سبيل المثال، في تظاهرة للمحافظين، نجد أن من قام بها هم أكثر عددا ممن شاركوا فيها. أما في التظاهرات الليبيرالية، نجد العكس من ذلك. والمنطق هنا بسيط جدا. إن المزاج المحافظ يتقزز بشكل طبيعي في أن يتظاهر، في أن يندمج بسهولة. كذلك أيضا لن نشاهد في هذه التظاهرة

المحافظة سوى عدد قليل من الناس يمكن لهم، أو حتى يريدون في المشاركة فيها. أما الليبيراليون، فعلى العكس من ذلك، إذ يملكون ذهنية توسعية وتشاركية؛ لهذا السبب تحوي تظاهرات «المتقدمين» الكثير من المختلفين المتحمسين لها، أكثر من حماستهم لأي نشاط حيوي آخر.

بيد أن هذا ليس كل شيء. ثمة ما هو أفضل من ذلك: بالنسبة إلى مَن يفكر، إن المعنى الوحيد لتظاهرة مهمة يكمن في أن يبرهن على أن تيّار الفكر المعاكس قوي جدا. ما من أحد ينظم تظاهرة من أجل الدفاع عن مبادئ مسلّم بها. تماما مثلما لا نحيط بأحد كي نطالب شخصا لا يواجه سوى خصوم باهتين أو عديمي المعنى. ليست هناك من تظاهرات من أجل أحد؛ إنها كلّها ضد أولئك الذين هم ضد أحد ما. الأمر إذًا ليس «ذاك الذي نقدم له تحية» والذي نشير إلى قيمته، بل إنهم أولئك. كلما كانت التظاهرة أكبر، كلما كان المهتم أقل؛ كلما ظهرت القوة التي تعارضه أكبر. كل تظاهرة هي نوع من «ها أنا قادم لمساعدتك»، وهذا ما يقوله من لا يرغب في المساعدة إلا عبر التصفيق كما عبر الهتافات.

هذا هو الدرس الذي يستخلصه كل كائن صافي الذهن من التظاهرات الشعبية.

حين نقوم بمظاهرة قليلة الأهمية، لصالح مخلوق ما، مبرز أو مسؤول، فإنه يمكن لهذا المخلوق أن يعتمد على مساعدة بلد بأسره. وإن كانت التظاهرة كبيرة، يمكن لها أن ترتجف. هذا ما يشعر به المحازبون، بحدسهم المغتاظ، أي أن ثمة معارضة عظيمة لها، وهذا ما جعلهم ينزلون إلى الشارع بهذه الحشود الكبيرة، وذلك لكي يقدموا الدعم - من خلالها كما من خلال أنفسهم - بقوة التصفيق والهتاف، لهذا الوهم بطمأنينة بدأت بالضعف.

١٨ نيسان ١٩١٥

البروليتاريا تنتظم. قبل أيام في لشبونة، تمّ افتتاح «تجمع طبقة الملكيين».

أشعر تجاه العمّال اليدويين بالودّ عينه والتقدير نفسه الذي أشعر بهما تجاه الآخرين، ما إن يستحقون ذلك؛ سيكون الأمر قاسيا جدا، من جهتي، بل فظّا فيما لو تكلمت بسوء نيّة عمّن يبحث عن كسب قوت حياته بشكل نزيه، ولا يجد عملا في المهن المعتادة، ويرى نفسه أنه في حاجة إلى قبول عمل جديد لا تظهر فيه جدارته مطلقا.

حين ظهرت صناعة السيارات، توجب علينا اختراع طبقة السائقين؛ لا أحد - بالتأكيد، إلا ربما بعض الضحايا الغوغائيين الذين كانوا السبب في دهس أنفسهم - ثار ضد عدم قدرة أولئك الذين بدأوا بسواقة السيارات. لقد تعلموا مهنتهم - وهذا أمر طبيعي - وكسبوا قوت يومهم - وذلك كله يدفع إلى الاحترام. وبعد لأي اكتشفوا مهنتهم وعلى الرغم من أن غالبيتهم ما زالوا يسوقون بشكل سيء، إلا أنهم أصبحوا سائقين بشكل نهائي.

ومع ذلك، فإن هذا المعيار الإنساني في التسامح الذي ينطبق

على السائقين - مثلما ينطبق على كلّ الطبقات العمالية التي يجعلها التقدم مِهنا ضرورية - سيكون من المحزن أن نرفض تطبيقه على الفنانين الملكيين، أي أن نقصيهم بشكل متعسف من العائلة البروليتارية الكبرى، حيث أنهم يتواجدون فيها وبشكل لائق.

سيكون البرهان الأكبر عن النقص في الروح الإنسانية دفعنا إلى ملاحظة الأخطاء في أعمالهم، كما لو أن الأمر عائد إلى طبقة عمالية وريثة تقليد ما. فواقع أن السيد كريسبيم، من ناساو، لن يكون يوما شخصا فكاهيا، لن يمنحنا الحق في أن نأخذ عليه هذا الأمر. الفكاهة لم تلد معه بشكل طبيعي. كذلك أيضا، لم يلد أحد ومهنته سائق أو راقص روسي. من يدري إلى أين مكان يمكن لنا أن نصل إليه عبر الاجتهاد والإرادة الطيبة؟ من يعرف بأننا لن نتفاجأ يوما ونجد أن السيد كريسبيم قد صار شخصا روحانيا؟

ما يجري في وجدان السيد كريسبيم يحدث أيضا، وبشكل أكيد، مع موهبة السيّد جوزيه دو أرويلا ومنطق السيد كونيا ايه كوستا. أما فيما يخص أولئك الحرفيين الآخرين، الذين يهتمون بالأجزاء الأكثر تقنية من الصناعة الملكية، فإنه يتراءى لي أنه من المبكر جدا أن نصاب بالإحباط من جرّاء ذلك. هذه هي حالة، على

سبيل المثال، صديقي دوان دو أمارال (ولا أميزه هنا إلا من أجل أن أحيّيه) - إذ أنه شخص شجاع وحتى ذكي - إذ نرى جيدا، كما الآخرين، بأنه غير مرتاح مع تكنولوجيا طبقته. لأننا على بينة فعلية، بأنه مع الملك والحبر الأعظم، يبتكرون أدوات لا يجيدون استخدامها بعد. ثمة شعور دائم بأن هناك بعض القطع الناقصة في عمل هذه المحركات المنطقية، بأن ثمة عمليات تجميد، العاب، وغيرها من الأشياء البذيئة في دواليب الديالكتيك الأصولي.

من النواقص الأخرى التي تظهر عند هذه الطبقة - النقص في الثقافة، الاستعجال في الاستنتاجات، بذاءة دائمة في الهجوم -، سيكون من الوضاعة أن نتحدث، لأن ذلك، شكل دائما البؤس الأصلي للجمعيات العامية.

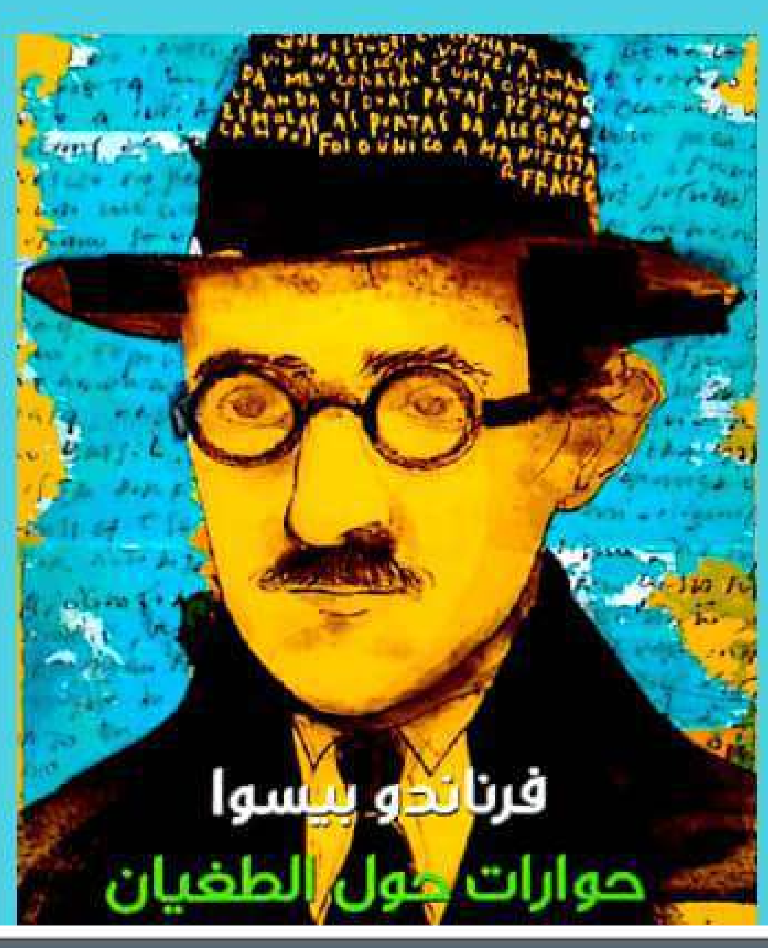
٢١ - نيسان - ١٩١٥

---

(1) المقصود بها الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨

(2) اللوزيتاني، ما له علاقة باللغة البرتغالية

(3) رُجْعَى، عَوْدَةٌ إلى صِفاتِ الأَسْلاف.




تليجرام

هنا سور الازبكية

غواص في بحر الكتب

باحثون

محمد خطاب